العصبية المعهـــدية

للاستاذ عبد الحميد يونس

في هذا الوقت الذي تلغى فيه الحدود الجغرافية نفسها على عتوها وجبروتها ، وتتقارب الجماعات البشرية التي طال اصطراعها حتى أصبح التاريخ الإنساني كله عبارة عن سرد متصل لمشاهد حروبها وأهوال أيامها ؛ بل وفي هذا الوقت الذي تغلب فيه الدعوة إلى العدالة الاجتماعية سائر الدعوات فتعمل على محو الفروق بين الطبقات ، أو على التقريب فيما بينها على الأقل ؛ أقول في هذا الوقت تقوى في مصر عصبية خطيرة تخلق طبقات جديدة وتنشر الإحن والأحقاد في نفوس الأفراد والجماعات

ومن عجب أن هذه العصبية تفرق أولا وقبل كل شيء بين المتعلمين وغير المتعلمين على الرغم من أن المصادفة وحدها جعلت المتعلم متعلماً والجاهل جاهلا ، وكان الأحجى أن يتقارب الإثنان ويأخذ الفاقد من الواجد ، ولا أقول يعطي الواجد الفاقد

وفرقت هذه العصبية كذلك بين المتعلمين أنفسهم ، فجعلتهم طبقات ، واخترعت لهذه التفرقة مراحل وأقساماً ، فهؤلاء هم أهل الطبقة الأولى ، وهؤلاء أهل الطبقة الثانية ، وأولئك أهل الطبقة الثالثة ... وهكذا

ولم تكتف هذه العصبية الوبيلة بذلك ، بل راحت تفرق الطبقة الواحدة شيعاً وأحزاباً لا تتعاون فيما بينها ، لأن الأحقاد والإحن هي أساس وجودها والباعث على بقائها واطراد نموها .

ترى ما هذه العصبية الحمقاء التي صورتها بهذه الصورة المنكرة ؟ هذه العصبية هي التي سميتها « العصبية المعهدية » ، ولطالما نبهت إليها وحذرت منها ، فلم يأبه للتنبيه والتحذير أحد ، لأن الكل منهم بها ، منتفع من وجودها ، وعامل على إذكائها.

* * *

هذه « العصبية المعهدية » هي السر فيما تسمعه كل يوم من أن طائفة بعينها ، أو قسما بعينه يريد أن يسوى بينه وبين طائفة أخرى وقسم آخر في بعض المزايا والحقوق ؛ أو أن أبناء معهد بعينه ينكرون على أبناء معهد آخر ما يضطلعون به من جهد وما يقومون به من عمل ، وكأنما العلم بضاعة يحتكرها أولئك دون هؤلاء ، والقوامون على مرافق هذه الأمة يساعدون أحياناً ، عامدين أو غير عامدين ، على تقوية هذه العصبية بتفضيل طائفة من المتعلمين على غيرها ، أو معهد من معاهد التعليم على غيره ، وفيهم من تأخذه عنجهية هذه العصبية إلى أبعد مدى ، فيحتكر العلم أو التعليم لأبناء طائفته أو معهده

ولعل من المضحكات أو المبكيات ما روى من أن مصلحة من مصالح الحكومة أرادت أن تتحرى العدالة في اختيار موظفيها لتبرأ من المحسوبية المتفشية في الدواوين وغير الدواوين ، فعقدت امتحان مسابقة تختبر به كفايات المتقدمين ومقدار صلاحيتهم للأعمال التي ستناط بهم وتوكل إليهم ، ولم يكن العمل يتطلب تخصصاً ضيقاً ، وتقدم إلى هذا الامتحان جمع من معاهد شتى ، وانقضت أيام وأعلنت النتيجة ، فإذا الأول من معهد ، والثاني والثالث والرابع من معهد آخر ، فاختار مدير المصلحة الثلاثة دون الأول ، لأنهم من المعهد الذي تخرج فيه ، فهم لذلك دون غيره أصلح للعمل معه !

ولا تظنن أن هذا المثال الفريد في بابه ، فكثير مثله يجري كل يوم في كل مصلحة وفي كل عمل ، يختار المتعلم من هذا المعهد دون سواه ، لأن رؤساءه منه ، أو لأنه ينتمي إلى طائفة قد أصبحت طبقة يجب أن يعمل حسابها ولا يستغضب أبناؤها ،

ولم أكن لأملك أن أكتب بأسلوب الناقد الجاد ... إن مجرد الحديث في لغة الجد والنقد عن مثل هذه « المساخر » لهو احتقار للشعر والأدب والنقد ، واحتقار للصحيفة التي أكتب فيها ، وللناس الذين أكتب لهم .

هذه « عملة » لا يجوز أن تمر . فهي استهتار يتجاوز حدود الجرأة ، ولا بد أن يوضع حد لهذه « المساخر » بأية طريقة

وإذا كان القانون لا يملك — مع الأسف — أن يعاقب على مثل هذا الاستهتار فيجب أن يرد الناس عن أنفسهم هذا الاحتقار . فما يجرؤ إنسان على نشر مثل هذا الكلام بمثل هذا الادعاء إلا أن يحتقر نفسه أو يحتقر القراء .

سيد قطب

ولسنا نبالغ فى تجسيم هذه العصبية المهدية وبيان أثرها مبالغة المتعصبين المهديين فى امتداح أنفسهم وطوائفهم ومعاهدهم ، والحط من قدر الآخرين وطوائفهم ومعاهدهم ، وذكر العنت الذى يقع عليهم دون سائر الناس

ألم يبلغك الخلاف الذى قام بين خريجى المعلمين العليا ومعهد التربية ، والانتصاف لهؤلاء مرة ، ولأولئك أخرى ، لأن مقاليد الأمور كانت فى يد هؤلاء مرة وأولئك مرة أخرى ؟ !

ألم يبلغك الخلاف الذى قام قبل ذلك بين هؤلاء المعلمين وبين الجامعيين والذى لا تزال له آثاره حتى اليوم ؟

ألم يبلغك الخلاف الذى قام بين بعض الجامعيين وأبناء دار العلوم ، وما له من أثر ويبل إلى يومنا هذا ؟ !

ألم تقرأ عن هذه الحرب الشعواء بين أبناء الأزهر وأبناء دار العلوم ، والتى اتخذت لنفسها صوراً وأشكالا لم يكن الشعب المصرى يألفها من قبل ؟

اختر لنفسك أى مدرسة من مدارس هذا القطر من الأسكندرية إلى أسوان للبنين كانت أو للبنات ، واختبر حالة المعلمين والمعلمات ، فسيأخذك الدهش من كل جانب لأنك ترى هؤلاء الذين يعيشون للعلم وللتعليم أحزاباً متنافرة ، لا لشىء إلا لأن كل فريق من معهد ، وقد أدت سياسة الارتجال وأنصاف الحلول والإصلاح المؤقت واسترضاء الطوائف إلى أن يتخرج المعلمون فى المدرسة الواحدة من أكثر من خمس معاهد لا يدعو التخصص وحده إلى هذا التفريق فيما بينها ، فأنت واجد مدرسي اللغة العربية المتخرجين فى الأزهر ودار العلوم وكلية الآداب ، وأنت واجد فى المدرسة نفسها أبناء معهد التربية العالى والابتدائى معاً ، إلى جانب خريجى المعلمين العليا ، وهم جميعاً يدرسون مجموعة واحدة من المواد . وكذلك الحال فى مدارس البنات ، فخريجات السنية والمعاهد الإضافية إلى جانب الجامعيات وخريجات معهد التربية الابتدائى ، وهكذا ... ولكل فريق من هؤلاء رؤساء يذكون فى عصبيته ويساعدونه فى وجوده وارتقائه

* * *

وأفرخت هذه العصبية عصبيات أخرى من نوعها وإن كانت أصغر وأقل شأناً ، فإن المعهد الواحد قد ألزمه قانون تقسيم العمل والتخصص إلى أن يفرق طلابه على الأقسام ونشأت « عصبيات قسمية » ، إذا صح هذا التعبير ، ورأينا هؤلاء الطلاب إذا تخرجوا ، ألفوا ما يشبه النقابات تضم أبناء قسمهم ، بل ورأينا أنه إذا ابتسم الحظ لواحد منهم وجعله من أصحاب الحل والعقد فى ناحية من النواحى ، ضاقت نفسه بأبناء غير قسمه ، وإن كانوا من معهده ، ورأينا أكثر من ذلك أن رجال العلم والتعليم فى هذا المعهد أو ذاك ، قد يضطرهم قانون التعاون إلى أن يجتمع بعضهم وهم من أقسام شتى للقيام بعمل علمى أو اختبار طالبات أوطلاب فينتصر كل إلى قسمه وأبنائه ، وإن كان ذلك تحيف على العدالة الواجبة فى كل شىء وفى العلم ومعاهده بنوع خاص

نعم ، إن هذه الهيئات والجماعات قد تكون لها وظيفة نقابية تدافع عن مصالح أبناء المهنة الواحدة ، وتحافظ لهم على حقوقهم ، وتستغل الفرد لمصلحة الجماعة كلها ، وتجند الجماعة لمصلحة الفرد من أبنائها ؛ ولكن مارأيك فى أن المهنة الواحدة تتوزعها نقابات مختلفة ، وتتنازعها اتحادات شتى ، تتسمى كل واحدة منها باسم « معهد » ، أو حتى قسم من معهد ، فأنت تجد اتحاد خريجى الجامعة ، وتجد اتحاد خريجى كلية الآداب ، بل واتحاد خريجى قسم اللغة الإنجليزية ، بل إن جماعة المعهد الواحد تنقسم بدورها إلى شعب ، من ذلك أن لخريجى دار العلوم أكثر من ناد واحد فى مدينة القاهرة وحدها

* * *

وهذه العصبيات تؤرق الحكام وتضنيهم ، وقد أزعجت الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، وأزعجت وزير المعارف ، وأزعجت وزير المالية ووزير الداخلية وسائر الوزراء ، واضطرت أولى الأمر إلى إقفال هذا المعهد أو ذاك أمداً ليس بالقليل ، والتلويح بالوعود لهؤلاء ، والنذر لأولئك ، فيرضى قوم ويغضب آخرون ، وتبقى العصبية المهدية على حالها تنخر فى عظام هذا المجتمع الناشئ المتطلع وتفسد ما بين المتعلمين ، وكان الأحجى بهم وبرؤسائهم أن يجتمعوا على مكافحة الفقر والجهل والمرض ، وهم الذين أدبتهم الأمة للاضطلاع بهذه المهمة ، لا لأن يحارب بعضهم بعضاً

والعلاج الوحيد لهذه العصبية المذكورة هو أن نأخذ الماء